مَعالِمُ مَشْرقِيَّةٌ في أَشْعارِ أَهْلِ الأَندلُس

Eastern landmarks in the poetry of the people of Andalusia

م. غسان حميد ابراهيم

Lect .Ghassan Hamid Ibrahim saleh

جامعة سامراء / كلية الآداب

E-mail: Ghassan29@uosamarra.edu.iq

الكلمات المفتاحية: الشعر الأندلسي، الشعر المشرقي الصِّلة بين الشعر، شعراء الأندلس، الشعراء المشارقة، سرعة الايقاع، الجناس التام.

Keywords: Andalusian poetry, Oriental poetry, the connection between poetry, Andalusian poets, Oriental poets, rapid rhythm, perfect alliteration.

الملخص

أن الشـعر الأندلسـي تربطه علاقة شـديدة الوثوق بنظيره الشـعر المشـرقي, فالشـعر الأندلسـي يتماز بخصـائص الشّـعر المشـرقي عينها، وهذا لا يعني بالضـرورة بأن نتاج الشـعراء الاندلسـيين لم يكن غير انعكاس لتأثير شـعراء وشـعر المشـرق عليهم, فالشـعر الأندلسـي يعد فرع من فروعه ونابع من صـلبه. فالتقارب والتشـابه والتأثير واضـح في النصـوص الأدبية للأندلسـيين والمشـارقة، فقد اسـتطاع شُـعراء المشـرق أن يؤثّروا بشـكل مباشـر بالأدب الجديد، وصـار نِتاجُهم الشـعريُّ معيناً لِنِتاج شـعراء الأندلس، وكانت أغراضـهم الشِّـعريَّةُ التي تناولوها هي نَفْسَـها المتداولة بالأندلس، وكان دَوْرُهم الأدبي متميَّزاً، فبسـطوا سـلطانهم الأدبي على الأدباء الأندلسـيين في مختلف ضُـرُوب الأدب. ومِنْ مظاهر ذلك التأثير أنَّ شـعراءَ الأندلسـيِّين لَقُوا مشـرقيين وتَتَلْمَذُوْا لهم، وأخذوا عنهم، وانتفعوا بِنِتاجهم الأدبي، واهْتَدَوْا بأفعالهم وبمختلف الموضـوعات التي طرقوها. وإنَّ مَواطن تأثير المشـارقة في نتاج الأندلسـيِّين تَمَثَّلَتْ في أصـالة نماذجهم الشـعريَّة وإبداعهم الأدبي وإجادتهم في النَّظْم والنَّثْر، وتجديداتهم في المعاني والصور.

Abstract

Andalusian poetry has a very reliable relationship with its counterpart, Oriental poetry. Andalusian poetry is characterized by the same characteristics of Oriental poetry, and this does not necessarily mean that the production of Andalusian poets was nothing but a reflection of the influence of the poets and poetry of the Orient on them, for Andalusian poetry is a branch of its branches and stems from its core. The closeness, similarity, and influence are evident in the literary texts of the Andalusians and the Mashreq. The poets of the East were able to directly influence the new literature, and their poetic output became specific to the production of the poets of Andalusia, and their poetic purposes were the same traded in Andalusia. in various forms of literature. One of the manifestations of that influence is that the Andalusian poets met orientalists and studied with them, took from them, benefited from their literary product, and were guided by their actions and the various topics that they approached. And the areas of influence of Al-Masharqa in the production of Andalusians were represented in the originality of their poetic models, their literary creativity, their mastery in grammar and prose, and their innovations in meanings and images.

perfect alliteration.

المقدمة:

يُعد التأَثُر والتأَثير في مختلفِ النَّواحي الثقَّافية والفكريَّة بين المَشرق العربي والأندلُس من الأمور المسلَّم بها كون المشرق هو المَنبع الذي كان نَهل منهُ شعراءَ الأندلس، فالمشارقة كانوا مَهـد الثقَّافة الإسلاميَّة، وبلادهم أصلٌ اللغة وآدابها، ونتاجَهم الأدبي مُوغل في القِدم، فكلّ شيء يَظهر لديهم أولاً، وهم يُتقنون التصـرّف بمختلفِ الفُنون، ويتعاملون باحترافيَّة بعلوم العربيَّة، وكانت عيون أدباء الأندلس ترقُب أعمالهم التي كانت تَفِد بعد ذلك على الأندلس.

وكان الأندلسيون يشعرون بحاجةٍ ملحَّة للتواصل مع المَشارقة، وذلك عن طريق تقليدهم تارة،أو مجاراتهم والتفوق عليهم تارة أُخرى، وبقي الأندلسيون ينظرون إلى فنون الشرق وأسلوب المشارقة وحياتهم الفكرية نظرةً مثاليّة فحذوا حذوهم وساروا على نهجهم حتى زوال دولة الاسلام في القرن التاسع الهجري.

وقَد اِسْتَمَدَّتْ حركةُ الشعر في الأندلس مَعِينَها من بلاد المَشرق، فكان مِحْوَرُها حَنينًا إلى مَنابعه المشرقيَّة وصَدى المخزونِ الشعري المشرقي، فتعلَّق شعراؤها بهذا الموروث الشعري، ولا سيَّما الشامي، والمصري، والعراقي، والحجازي واليماني؛ فَشِعْرُهُمْ شِعْرُهُمْ، ولُغَتُهُمْ لُغَتُهُمْ، ما أدّى إلى توثيق الصِّلة بين الشعر الأندلسي ونظيره المشرقي، في مختلف الأغراض الشعريَّة التي تناولوها.

إنَّ الشعر الأندلسي ذو روافِدَ شاميَّةٍ، ومصريَّةٍ، وعراقيَّة، وحجازيَّة ويمانيَّة، صوَّرها الشعراءُ الأندلسيُّون بدقَّة في نُصُوصهم الشعريَّة. وبمعنًى آخَرَ، اتَّجَهَتْ أَنْظارُ الأندلسيّين صَوْبَ نظرائهم المشارقة، يَتْبَعُون أخبارهم المُعْتادة، ويَتْلُون أشعارهم السائرة، ما أغاظَ ابنَ بسّام الشَّنْتَرِيني غَيْرَةً على الأندلس الذي انْماز بكثرة أدبائه ووُفُور علمائهِ(١).

ومن الطبيعي أنْ يَجْري شعراءُ الأندلس على سُنَن أَحْفادهم المشارقة؛ لأنَه قَلَّ ما يأتي لهم مَعْنًى لم يَسْبِقْ إليه أَحَدٌ، وأنَّ الكلام يأخذ بَعْضُه من بعض، ولذا قالوا في الأمثال :" ما تَرَكَ الأوَّلُ للآخَرِ شيئًا(٢)". لذا رأى هؤلاءِ الأندلسيُّون أن يَتَّكئوا على أبْناء موطنهم الأصلي بدل أنْ يَتَطَلَّعوا إلى هنا وهناك، فأُعْجِبوا ببلاد الشام، وكان في مقدّمتهم أحمد بن عبد المؤمن الشَّرِيشي النَّحوْي، شارحُ المقامات، الذي عَدَّهُ المَقَّري مِمَّنْ أُعْجِبَ بالشام(٣). ولِشدَّة ما تَرَكَتِ الشامُ في نَفْس الشريشي من أَثَرٍ طَيِّبٍ، تَشَوَّقَ إليها، وهو عائِدٌ إلى الأندلس ولمّا يَصِلْ إليها، فقال وهو بِمِصْرَ(٤) [البسيط]:

يا جيرةَ الشامِ هل من نحوكم خبرُ؟ فإنَّ قلبي بنار الشوقِ يستعرُ
بعدتُ عنكم فلا والله بعدكمُ ما لذَّ للعينِ لا نومٌ ولا سهرُ
إذا تذكرتُ أوقاتاً نأتْ ومضَتْ بقربكُمْ كادتِ الأحشاءُ تنفطرُ

إنَّـه شـعر مُبْدِعٌ، دقـيقُ الألفاظ، حَسَـنُ المعـاني، رقيـقٌ صادقٌ، جَيِّدُ الوَقْـع في النَّفْس. والشام في البيت الأوَّل اسْمٌ لجملة بلاد(٥).

وكانت رياضُ دِمَشْقَ مَبْعَثَ قولِ الشعر عند علي بن محمَّد القرطبي، المعروف بابـــن خروف؛ لِنَسْمَعْهُ يقول (٦) [الوافر]:

تَرُوقُ دِمَشْقُ وِلْدانًـا وحُـورًا وتُزْهى زَهْوَ جَنّــاتِ النَّعِيمِ
إذا رَحَلَتْ عَرُوبَةُ(٧) عن حِماها تَـــــأَوَّهَ كُلُّ أَوّابٍ حَلِيمِ
إلى سَبْتٍ حَكى فِرْعَوْنَ مُوسى يُجَمِّعُ كُلَّ سَحّـارٍ عَلِيمِ

دِمَشْــقُ في البيت الأوَّل قاعدة بلاد الشـــام وأشـــهر مدنها(٨). وقد أبْدَعَ ابن خروف في وصف رياضها، فإذا هي ممتدَّة على امتداد البَصَر، مَلْأى بالأزهار والورود حَيْثُ نَغَماتُ الطُّيور المتنقِّلةِ على أغصـــان الشـــجر، زاهيةٌ في زينتها تُحاكي جَنّاتِ النعيم. لذلك وَظَّفَ فَواصِلَ أبياته فأتَتْ مُحاكيةً يَوْمَ السَّبْت، ذلك اليوم الذي هو يَوْمُ انْقطاعٍ عن العمل عند يهود الأندلس. مالَ في البيت الأوَّل إلى اقتباس فَواصِـــلَ مرتبطةٍ بآياتٍ قرآنيَّة؛ فلفظـــة " الوِلْدان" وَرَدَتْ في غير سورة قرآنيَّة، ولا سيَّما في النِّســـاء، والواقعة، والمُزَّمِّل والإنســـان. ولفظة "الحُور" وَرَدَتْ في الدُّخان، والطُّور، والرحمن والـــواقعة. ووردتْ عبـــارة " جَنَّات النَّعيم" في المائدة، ويونس، والحَجّ، ولُقْمان، والصّافّات والواقعة والقَلَم.

وفي البيت الثاني اسْتَدْعى ألفاظًا قرآنيَّة؛ فكلمة "أَوّاب" وردتْ في غير آية من سورة ص، وفي آية من سورة ق. كما استدعى قول الله تعالى :{إنَّ إبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ}. التوبة، ١١٤.

وفي البـيت الثـالث وَصَـفَ مدينـة دمشـق في يـوم سَبْتٍ واسـتحضر قول الله تعـالى : {يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحّارٍ عَلِيمٍ} . الشعراء، ٣٧.

وهكذا يُعَدُّ تأثـير القرآن الكـريم في نَظْـم ابن خـروف عنصـرًا بارزًا يُضـاف إلى بـاب المؤثِّرات الشـاميَّة كون الشـاعر قد سـخر الفاظ ومعاني القرآن في ابراز التأثير المشرقي في نتاج أهل الأندلس.

وقام علي بن موسـى بن سـعيد، المعروف بابن سـعيد، برحلتين إلى بلاد الشـام ؛ الأولى طويلة بدأها عام ٦٣٩ هــ / ١٢٤١م (٩) . ثُمَّ عاد إلى الأندلس عام ٦٥٢ هــ / ١٢٥٤ م (١٠). وكانت رحلته الثانية في عام ٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ م (١١). وفي أيّام مُقامه بدمشق في رحلته الأولى تغنّى بهذه المدينة، فقال (١٢) [مجزوء الكامل] :

أمّـــا دِمَشْقُ، فَجَنَّـــةٌ يَنْسى بها الوَطَنَ الغَرِيبْ
لِلّـــه أيّـــامُ السُّبُو تِ بها ومَنْظَرُها العَجِيب !
أُنْظُرْ بِعَيْنِكَ، هَلْ تَـرى إلّا مُحِبًّـا أو حَبِيبْ ؟

في مَوْطِنٍ لا غَنّى الحَما مُ به على رَقْصِ القَضِيبْ
وغَدَتْ أزاهِرُ رَوْضِـــهِ تَخْتـالُ في فَرَحٍ وطِيبْ

رأى أنَّ دِمَشْقَ جَنَّةُ الدُّنْيا، ولا سيَّما أيّام السَّبْت، وأنَّ النَّعيم قائِمٌ في كُلِّ وَقْتٍ، وأنَّ ذلك غَيْرُ قائِمٍ في غيرها من المدن. لذا أَكْثَرَ من التَّغَنّي بها فقال [١٣] [البسيط]:

أمّا دِمَشْقُ، فمَا في الأَرْضِ مُشْبِهُها جَنّاتُ عَدْنٍ، بِها ما يَشْتَهي البَشَرُ

وكُلُّ سَبْتٍ بِها عِيدٌ تَعُودُ بِهِ آمالُهُمْ وبِـــهِ الزَّلّاتُ تُغْتَفَرُ
بِها النَّعِيمُ غَدا للناسِ مُكْتَمِلًا مُطَوَّلًا وَهْوَ في الآفاقِ مُخْتَصَرُ
القُضْبُ راقِصَةٌ والطَّيْرُ صادِحَةٌ والنَّشْرُ مُرْتَفِعٌ والماءُ مُنْحَدِرُ[١٤]

وإذا سَمِعَ ابنُ سعيد شعرًا في وَصْف دِمَشْقَ، تَمَنّى أنْ يَحُلَّ مَواطِنَها، ولَمّا بَلَغَ اللهُ تعالى الأَمَلَ والأَمانيَّ قَبْلَ المَنُون قال [١٥] [الوافر]:

وإنّي لَوْ نَظَرْتُ بِأَلْفِ عَيْنٍ لَما اسْتَوْفَتْ مَحاسِنَها العُيُونُ

وكان محمَّد بن أحمد ابن جابر المَرِيّي، المـــعروف بابن جابر، قد رَحَـــلَ إلى المشـــرق ودَخَلَ الشام[١٦]. وفضَّلَ دِمَشْقَ على غيرها من المدن، فقال [١٧] [الكامل]:

لَكِ، يا دِمَشْقُ، على البِلادِ فَضِيلَةٌ أيّامُكِ الأَعْيـادُ لازَمَها الصَّفا
ولَكَمْ بِجَيْرُونٍ جَرَرْتُ ولم أَخَف ذَيْلًا وبَرْحُ هَوايَ فيها ما اخْتَفى

جَيْـــرُونُ في البيت الثاني هي دِمَشْقُ، وقيل : هي بناء عند باب دِمَشْقَ، مِنْ بِناء النَّبيّ ســـليمان بن داود، عليه السلام، وقيل: هي قرية الجَبابِرَة في أرض كِنْعانَ، وقد أَكْثَرَ الشعراء مِنْ ذِكْرِها[١٨].

وحَضَـــرَ محمَّد بن سـعيد ابن الجَنّان الشـاطبيّ، المعروف بابن الجَنّان، مع ابن سـعيد برَوْضٍ على نَهْر ثَوْرا بِدِمَشْـقَ، فقال ابن الجَنّان يصـف ذلك الرَّوْضَ حيثُ تَجُول مياه ذلك النَّهْرِ المُتَدَفِّق [١٩] [الخفيف]:

يا رَعى اللهُ أُنْسَنا بَيْنَ رَوْضٍ حَيْثُ ماءُ السُّرُورِ فيه يَجُولُ
تَحْسَبُ النَّهْرَ عِنْدَهُ يَتَثَنّى[٢٠] وتَخالُ الغُصُونَ فِيـهِ تَمِيلُ

لم يَخْرُجِ ابنُ الجَنّان عن نِطاق الحِسِّـيَّة ودائرة التَّشْـبيهات؛ فَقَدْ رأى النَّهْرَ يَتَعَطَّفُ يَمِينًا ويَسـارًا؛ لِيَسْـقِيَ وُرُودَ الرَّوْض وأَزْهارَهُ، وتَحِفُّ به الغُصُـونُ كأنَّها حَسْـناءُ تَتْآدُ بِخَصْـرها النَّحيف وتَمِيلُ بِغُنْجها على عاشِقِيها. وعلى الرغم من ذلك وُفِّقَ في اسْتِقْصاءاته أيَّما توفيق . وهذا الشعر أعْجَبَ ابنَ ســـعيد فقال فيه : "هذا هو الطِّرازُ العالي، والعِلْقُ الثَّمين الغالي[٢١]". ونَهْرُ ثَوْرا المذكور عظيمٌ بِدِمَشْقَ، ويُسَمّى نَهْرَ بَرَدى[٢٢].

وكان أحمد بن محمَّد الإشبيلي، المعروف بابن الرُّوميَّة، كثيرًا ما يُطْنِبُ في الثَّناء على دِمَشْقَ ويصف محاسنها، كقوله مُتَباهِيًا بِشُرْب الخُمُور في ظِلالها عند الأَصِيل[٢٣] [البسيط]:

خَيِّمْ بِجِلِّقَ بَيْنَ الكَأسِ والوَتَرِ ... في جَنَّةٍ هي مِلْءُ السَّمْعِ والبَصَرِ
وانْظُرْ إلى ذَهَبِيّاتِ الأَصِيلِ بها ... واسْمَعْ إلى نَغَمات الطَّيْرِ في الشَّجَرِ

جِلِّقٌ في البيت الأوَّل اسم دِمَشْقَ في الأَصْل، بكسر الجيم واللام، وتشديد اللام، وهي لفظة أعَجَميَّة، وقد عُرِّبَتْ وصارت : دِمَشْقَ[٢٤].

ودَخَلَ أحمد بن يوسف الرُّعَيْني الغرناطي مدينة حِمْصَ، فوصفها في قوله[٢٥] [السريع]:

حِمْصٌ، لِمَنْ أَضْحى بِها، جَنَّةٌ ... يَدْنُو لَدَيْها الأَمَلُ القاصي
حَلَّ بها العاصي، ألا فاعْجَبُوا ... من جنّةٍ حلَّ بها العاصي

فَحِمْصُ مدينة كبيرة من أوسع مدن الشام تمتاز بطبيعتها الخلابة وهي تُعد من الجنان فمنْ يحل بها تتحقق أحلامه ويطيب عيشه [٢٦]. وفي البيت الثاني جناس تامٌّ بين لفظة "العاصي" في صَدْره، وهو النَّهْرُ الذي يَمُرُّ بِحِمْصَ ويَسْقي بساتينها، ولفظة "العاصي" في عَجُزِه، وهي قافية البيت، وتعني الخارج عن طاعة الله تعالى.

وتَغَنّى ابن سعيد بنهر مدينة حماة بوصفه لمناظر حافتي النهر التي سلبت منه حواسه لجمالها، كما وصف نَواعِيرِها وان صوتها قد ادخل البهجة الى قلبه وهي تغرف المياه بدلائها مصدرة أصوات تشبه الأنين لثقل ما تحمله من المياه التي شبهها بالدمع كي تروي بساتين المدينة، فقال[٢٧] [الطويل]:

حَمى اللهُ مِنْ شَطَّيْ حَماةَ مَناظِرًا ... وَقَفْتُ عَلَيْها السَّمْعَ والفِكْرِ والطَّرْفا
وأَشْدو لدى تلك النَّواعِيرِ شَدْوَها ... وأَغْلِبُها رَقْصًا وأُشْبِهُها غَرْفا
تَئِنُّ وتُذْري دَمْعَها فكأنَّها ... تَهِيمُ بِمَرْآها وتَسْأَلُها العَطْفا

وقال أيضًا يَصِفُ مدينة حَلَبَ ويذكر أسماء مَواضِعِها التي كان يَرْتادُها ويختلف إليها[٢٨] [الخفيف]:

حَلَبٌ، إنّها مَقَرُّ غَرامي ... ومَرامي وقِبْلَةُ الأَشْواقِ
لا، خَلا جَوْشَنٌ وبِطْياسُ والـ ... عَبْدُ مِنْ كُلِّ وابِلٍ غَيْداقِ[٢٩]
كَمْ بِها مَرْتَعٌ لِطَرْفٍ وقَلْبٍ ... فِيهِ سَقْيُ المُنى بِكَأسٍ دِهاقِ[٣٠]
وتَغَنّي طُيُورِها لارْتِياحٍ ... وتَثَنّي غُصُونِها لِلْعِناقِ
وعُلُوِّ الشَّهْباءِ حَيْثُ اسْتَدارَتْ ... أَنْجُمُ الأُفْقِ حَوْلَها كالنِّطاقِ[٣١]

ذَكَرَ ابنُ سـعيد أسـماءَ مواضـعِ مدينةِ حَلَبَ، التي كان يَرْتادها؛ فَحَلَبُ في البيت الأوَّل مدينة كبيرة بالشـام، سُـمِّيَتْ باسـم رَجُلٍ من العَمالقة اسْـمُهُ: حَلَب[٣٢]. كانت مَقَرَّ غرامه وقِبْلَةَ أَشْواقه . وفي البيت الثاني ثلاثةُ أماكنَ كان يختلف إليها ؛ أوَّلُها : جَوْشَنُ، وهو جَبَلٌ مُطِلٌّ على حَلَبَ في غَرْبِيّها، وقد أكْثَرَ شعراء حلب من ذكره [٣٣]. وثانيها بِطْياسُ، وهي قرية من باب حَلَبَ، بَيْنَ نَيْرَبَ وبابِلّى[٣٤]. وثالثها العَبْدُ، وهو جبل لبني أسد[٣٥].

وكان ابن سـعيد بِتونُسَ، فَكَتَبَ منها إلى صـديقه الشـامي أبي المجد محمَّد بن عبد الله الأصبهاني بهذه الأبيات [٣٦] [البسيط]:

عَرِّجْ على حَلَـبٍ إنْ كُنْـتَ ذا طَلَـبٍ ... لِلْعِلْمِ والحِلْمِ والعَلْياءِ والأدَبِ
هَلْ تَذْكُرَنَّ لَيالِينا التي سَلَفَتْ ... بالنَّيْرَبَيْنِ ووَجْهُ الأُنْسِ لم يَغِبِ؟
وخَلْسَـــةً قَـدْ قَطَعْنـا بـالقُصَـــيْرِ لَهـا ... وَقْتًا يُطَوِّلُ ذِكْراهُ مَدى طَرَبِ؟
وفي حَمـاةَ وفي قَصْـــرِ المَعَرَّةِ والـ ... أَيّامُ غافِلَةٌ عن مُوجِبِ السَّبَبِ؟

البيت الأوَّل بصـيغة الأمر، والأبيات الأخرى بصـيغة الاسـتفهام، ولكنّها تفيد التَّمَنّي، أي يتمنّى على صـــديقه أن يَذْكر ذلك المُتَنَزَّهَ البديعَ نَيْرَبَ حيث قضـــيا معًا أحلى لحظات العمر. ونَيْرَبُ في البيت الثاني قرية مشهورة بدمشق في وسط البساتين، وقد سَمّاها الشاعر، كغيره من الشعراء، النَّيْرَبَيْنِ، بلفظ التثنية[٣٧]. والقُصَيْرُ في البيت الثالث ضَيْعَةٌ قرب حِمْصَ[٣٨]. وحماة في البيت الرابع مدينة مشهورة، من أَنْزَه مدن الشام [٣٩]. والمَعَرَّة هي مَعَرَّةُ النُّعْمان، وهي مدينة قديمة معروفة، من أعْمال حِمْصَ، بين حَلَبَ وحَماة[٤٠].

ولم تَغِبْ مِصْرُ عن أَخْيِلَة الشعراء، فرآها أحدهم جَنَّة الدنيا، فقال[٤١] [الطويل]:

لَعَمْرُكَ، مـا مِصْـــرٌ بِمِصْـــرٍ، وإنَّمـا ... هـي الـجَنَّـةُ الـدُّنْـيـا لِـمَنْ يَـتَبَصَّـــرُ

مِصْرُ هي خاصَّة بلاد مِصْر[٤٢]. وهي أطْيَبُ الأرض تُرابًا[٤٣]. واشتهرت بأهْرامها، وهي أهرامٌ قديمة، وأهمُّها الهَرَمان الكبيران[٤٤]. وهما الهَرَمُ الشرقيُّ والهَرَمُ الغربيّ[٤٥]. وقد بُنِيَتْ من الحَجَر والرُّخام[٤٦]. وتغنّى شعراء الأندلس بهذين الهَرَمَيْن، فَكَثُرَ تَعَجُّبُ أميَّة بن عبد العزيز بن أبي الصَّلْت الداني منهما، فقال[٤٧] [الطويل]:

بِعَيْشِكَ، هل أَبْصَرْتَ أَعْجَبَ مَنْظَرًا ... على ما رَأَتْ عَيْناكَ مِنْ هَرَمَيْ مِصْرِ؟
أنافا بأَكْنافِ السَّماءِ وأشْرَفا ... على الجَوِّ إشْرافَ السِّماك على النَّسْرِ[٤٨]
وَقَدْ وافَيا نَشْزًا[٤٩] مِنَ الأَرْضِ عالِيًا ... كأنَّهما نَهْدانِ قاما على صدْرِ

أَبْدَعَ الشـاعرُ في هذه الأبيات، ولا سـيَّما في بيته الأخير حين شـبَّه الهَرَمَيْن، وَقَدْ وافَيا مكانًا مرتفعًا من الأرض، بِنَهْدَيْن على صَدْرِ حَسْناءَ، وهو تشخيصٌ جميل.

وبِمِصْرَ نَهْرُ النِّيلِ المشهور، وهو من عجائب الدنيا عذوبةً واتِّساعًا [٥٠]. وقد مَجَّدَهُ ابن سعيد، فرأى أنَّه أَكْسَبَ أدباءَ مِصْرَ الحَلاوةَ في النَّظْم والنَّثْر، فقال[٥١] [الطويل]:

أَسُكّانَ مِصْرٍ، جاوَرَ النِّيلُ أَرْضَكُمْ فأَكْسَبَكُمْ تلك الحَلاوَةَ في الشِّعْرِ
وكانَ بتلك الأرضِ سِحْرٌ وما بَقي سِوى أَثَرٍ يَبْدو على النَّظْم والنَّثْرِ

وأَحْسَنَ ابنُ خروف القرطبي في قوله يصف هذا النهر[٥٢] [البسيط]:

ما أَعْجَبَ النِّيلَ! ما أَحْلى شَمائِلَهُ! في ضَفَّتَيْهِ من الأَشْجار أَدْواحُ
مِنْ جَنَّةِ الخُلْدِ فَيّاضٌ على تُرَعٍ[٥٣] تَهُبُّ فيها هُبُوبَ الرِّيحِ أَرْواحُ
لَيْسَتْ زِيادَتُهُ ماءً كما زَعَمُوا وإِنَّما هي أَرْزاقٌ وأَرْباحُ

تَفَاعَلَ ابنُ خروف مع بيئة مِصْـرَ، فَأُعْجِبَ بنهرها الذي ظَلَّلَتْه أَغْصـانُ الشـجر، وأفاضَ على أهل مِصْرَ أَرْزاقًا وأَرْباحًا.

وقال ابن جُبَيْر وهو بِمِصْرَ مُتَشَوِّقًا[٥٤] [الطويل]:

شَهِدْنا صَلاةَ العِيدِ في أَرْضِ غُرْبَةٍ بأَحْوازِ مِصْرٍ والأَحِبَّةُ قد بانُوا
فَقُلْتُ لِخِلّي في النَّوى :جُدْ بِدَمْعَةٍ فَلَيْسَ لنا إلّا المَدامِعُ قُرْبانُ[٥٥]

واحتلَّتِ المعالمُ الحجازيَّةُ مكانةً خاصَّـــةً في نفوس شـــعراء الأندلس، وقد ذكروها في أشعارهم تَلْمِيحًا إلى القَداسة التي تُمَثِّلُها، أو إلى الأصول التي يفتخرون بها. والحِجازُ جَبَلٌ مُمْتَدٌّ يَفْصِلُ بين نَجْدٍ وتِهامَةَ، أَكْثَرَ الشعراءُ العرب مِنْ ذِكْرِه [٥٦].

وأَشْـــهَرُ مَعالِم الحجاز مَكَّةُ المُكَرَّمَةُ، وهي مَعْلَمٌ دينيٌّ كبيرٌ، يرتبط بأذهان المســـلمين؛ لِطَهارةِ أَرْضه وتُرْبَته. وكان الأندلسيُّون، كغيرهم من مُسْلمي العالم، يُفَضِّلونها على وطنهم، كقول أحمد بن علي المَرِيّي، المعروف بابن خاتمة :" ما فارَقَ ذَوُو الأَحْلام، وأُولُو الأَرْحام، مَواطِنَ اسْـتِقْرارِهم، وأماكنَ قَرارهم، إلّا بِرَغْمهم واضْـــطرارهم، واسْـــتِبْدالِ دارٍ هي خَيْرٌ مِنْ دارهم، ومتى تُوازَنُ الأندلسُ بالمَغْرِب، أو يُعَوَّضُ عنها إلّا بِمَكَّةَ أو يَثْرِبَ؟[٥٧] " .

وهكذا انتقل شُعراءُ أندلسيُّون مَنَّ اللـــــهُ تعالى عليهم، إلى الحجاز؛ لأداء فريضة الحَجِّ بِمَكَّةَ والرَّغْبة في زيارة الأمكنة المقدَّسة، وفي مقدّمتها قَبْرُ الرسول الكريم محمَّد، صلّى الله عليه

وســـلَّم. فابن جُبَيْر البَلَنْســـي، مثلًا، قَامَ بثلاثِ رِحلاتٍ إلى المشـــرق؛ الرحلة الأولى للنِّيَّة الحجازيَّة[٥٨]. وعندما وصل إلى مدينة مَكَّةَ المُعَظَّمة انْشَرَحَ صَدْرُهُ، فأنشد قصيدة طويلة أوَّلُها [٥٩] [المتقارب]:

بَلَغْتَ المُنى وحَلَلْتَ الحَرَمْ فَعادَ شَبابُكَ بَعْدَ الهَرَمْ

فَاَهْلًا بِمَكَّةَ، أَهْلًا بِها وشُكْرًا لِمَنْ شُكْرُهُ يُلْتَزَمْ

ومن أسماء مَكَّةَ أُمُّ القُرى، سُمِّيَتْ بذلك؛ لأنَّها أَقْدَمُ القُرى التي في جزيرة العرب، وقيل: لأنَّها أصل الأرض[٦٠] . وقد وصفها ابن جابر المَرِيّي في مقصورته المشهورة فقال [٦١] [الرجز]:

كانَّهُمْ إذا رَأَوْا غُرَّتَهُ وَفْدُ حَجيجٍ عايَنُوا أُمَّ القُرى

شبَّه ابنُ جابر بني الحاجاتِ الواقفين بباب النبيّ محمَّد، صَلَّى اللـــهُ عليه وسلَّم، وهم ينظرون غُرَّتَهُ، بِوَفْد حَجيجٍ يُعاينُونَ مَكَّةَ المُكَرَّمة، بجامع الرؤيةِ والمُعاينة. وهو تشبيه تمثيل؛ لأنَّ وَجْه الشَّبَه صورةٌ مُنْتَزَعَةٌ من مُتَعَدِّدٍ، أي تشبيه صورة بصورة: شَبَّهَ صورة الناس، وهُمْ ينظرون غُرَّة الرسول الكريم، بصورة الحجيج وهم يُعاينون مَكَّةَ المُكَرَّمَة.

ورأى ابن الخطيب أنَّ الحَرَمَيْنِ: مَكَّةَ المكرَّمة والمدينة المُفَضَّـــلة، أَفْضَـــلُ من الأندلس، فقال :" لكنّي لِلْحَرَمَيْن جَنَحْتُ، وفي جَوِّ الشَّوْقِ إليهما سَرَحْتُ...وقَصْدُ سَيِّدي [النَّبيّ محمَّد صَلّى الله عليه وسلَّم] أَسْنى قَصْد، تَوَخّاهُ الشُكْر والحَمْد[٦٢] ".

ولولا رَجاءُ القُرْبِ من بَيْت الله الحَرام بمكَّةَ ومُقامِ الرَّســـول الكريم بالمدينة، لَما ابْتَعَدَ ابنُ جابر عن وطنه وأهله. هاكُمْ قَوْلَهُ [٦٣] [الطويل]:

ولوْلا رَجاءُ القُرْب مِنْ ذلك الحِمى لَما اخْتَرْتُ عن أَهْلي وعَنْ وَطَني بُعْدا

الحِمى مَوْضِـــعٌ قريبٌ من المدينة، سُـــمِّيَ بذلك؛ لأنَّ فيه كَلَأً يُحْمى من الناس أن يَرْعَوْه[٦٤]. وفي الحديث الشريف :" لا حِمَى إلّا للّه ولِرَسُولِهِ، صَلّى اللهُ عليه وسَلَّمَ [٦٥]".

وأَزْمَعَ ابنُ جُبَيْر البَلَنْسي حَجَّ بَيْتِ الله الحَرام وزيارَةَ قَبْرِ نَبيّه، فقال[٦٦] [الوافر]:

أَقُولُ وَقَدْ دَعا لِلْخَيْرِ داعٍ حَنَنْتُ لَهُ حَنِينَ المُسْتَهامِ

حَرامٌ أنْ يَلَذَّ لِيَ اغْتِماضٌ ولَمْ أَرْحَلْ إلى البَيْتِ الحَرامِ

ولا طافَتْ بِيَ الآمالُ إنْ لَمْ أَطُفْ ما بَيْنَ زَمْزَمَ والمُقامِ

ولا طابَتْ حَياةٌ لي إذا لَمْ أَزُرْ في طَيْبَةٍ خَيْرَ الأَنامِ

وأُهْدِيهِ السَّلامَ وأَقْتَضِيهِ رِضًا يُدْني إلى دارِ السَّلامِ

أَحْدَثَ الشاعرُ في هذه الأبيات إيقاعًا شَجِيًّا تَرَدَّدَتْ أصْداؤه في البُعْد المكاني والزَّماني مَعًا، ما بَيْنَ التِّكْرار، ورَدِّ العَجُز على الصَّدْرِ، والجناس، على الرغم من أنَّ الغاية من الجناس ليست موسيقيَّة. ولِعِظَمِ الدَّعْوَة إلى حَجِّ بَيْت الله تعالى وتأكيد الاستجابة لها، ولِعِظَمِ مكانة الداعي، وهو الرسول الكريم محمَّد، صَلّى الله عليه وسلَّم، لزيارة قبره الكريم، كَرَّر ابنُ جُبَيْر في البيت الأوَّل فعل "دعا"، فَذَكَرَ اسم الفاعل "داعٍ" وفِعْلَ "حَنَنْتُ" فَذَكَرَ المفعول المطلق "حَنِينَ" . وفي رَدِّ العَجُز على الصَّدْر في البيت الثاني، لَجَأَ إلى معنى التحريم، وهو ضِدُّ الحَلال، وإلى عدم الاستعاضة عن رحلة الحَجِّ، فَرَدَّد كلمة "حَرام" في صَدْر البيت كلمة "الحَرام" في عَجُزِه، وفي ذلك تكون سرعة الإيقاع الموسيقي قد خَفَّتْ؛ لِبُعْدِ الكلمتين عن بعضهما. وفي البيت الأخير يَبْلُغُ البُعْدُ المكاني أَقْصاه بين إهداء السلام ووصوله إلى دار السلام؛ لأنَّ الدَّلالة المعنويَّة اقْتَضَتْ هذا التباعد، فلجأ الشاعر إلى تقليص البُعْد بزيارة قبر الرسول محمَّد، صَلَّى الله عليه وسَلَّم، وإهدائه التحيَّة والسلام، كما هو واجبُ كُلِّ مسلم، فَدَنا في ذلك من جَنَّة الخُلْد التي هي دار السلام والوئام.

ولمّا رأى ابن جُبَيْر بَيْتَ الله الحَرام، زادَهُ اللهُ مَهابَةً وتَعْظيمًا، فقال[٦٧] [المتقارب]:

بَدَتْ لِيَ أَعْلامُ بَيْتِ الهُدى بِمَكَّةَ والنُّورُ بادٍ عَلَيْهِ
فَأَحْرَمْتُ شَوْقًا لَهُ بالهَوى وأَهْدَيْتُ قَلبي هَدِيًّا إِلَيْهِ[٦٨]

واستهلَّ ابنُ دِحْيَةَ البَلَنْسي مَدْحِيَّةً قالها في الملك الكامل محمَّد بن محمَّد بن أيُّوب، صاحبِ دمشق، بمناجاة العقيقِ ورامَةَ والحَطيمِ وزَمْزَمَ، فقال [٦٩] [الكامل]:

فَمَحَلُّكُمْ قَلْبي وأَنْتُمْ بالحَشا لا بالعَقِيقِ ولا بِرامَةَ أَنْتُمُ
نَزَلُوا الحَطِيمَ وماءَ زَمْزَمَ أَوْرَدوا نَعِمَ الحَطِيمُ بِهِمْ ورَقَّتْ زَمْزَمُ

سارَ الشاعرُ على طريقة القُدَماءِ، فافْتَتَحَ قصيدته بذكْر أربعة مَواضِعَ حجازيَّة؛ الأوَّلُ هو العقيق، وهو بناحية المدينة المنوَّرة وفيه عيون ونَخْلٌ[٧٠]. والثاني هو رَامَةُ، وهي آخِرُ بلاد بني تميم، بين مَكَّةَ والبَصْرَة [٧١]. والثالث هو الحَطِيمُ، وهو ما بين الرُّكْن والمُقام وزَمْزَمَ والحِجْر[٧٢]. والرابع هو زَمْزَمُ، وهي البِئْرُ المُبارَكَةُ المشهورة، سُمِّيَتْ بذلك؛ لِكَثْرَةِ مائها، وقيل : لِزَمْزَمَة جبرائيلَ، عليه السلام، وكلامِهِ عليها، والزَّمْزَمَةُ هي الكَثْرَةُ والاجتماع[٧٣].

وكان ابن جُبَيْر البَلَنْسي بالأندلس، فتشوَّق إلى حُجّاج كان اجتمع بهم بِمكَّةَ، فقال من جملة قصيدة ذَكَرَ فيها مِنًى وعَرَفاتَ [٧٤] [الرمل]:

يا وُفُودَ اللهِ، فُزْتُمْ بالمُنى فَهَنيئًا لَكُمُ، أَهْلَ مِنى
قَدْ عَرَفْنا عَرَفاتٍ مَعَكُمْ فَلِهذا بَرَّحَ الشَّوْقُ بِنا
نحن بالمَغْرِبِ نُجْري ذِكْرَكُمْ فَغُرُوبُ الدَّمْعِ تَجْري هُتَّنا

مِنًى في البيت الأوَّل في دَرَج الوادي الذي يَنْزِلُهُ الحاجُّ ويَرْمي فيه الجِمارَ مِنَ الحَرَمِ، سُمِّي بذلك لِما يُمْنى به مِنْ دَمِ الكِباش، أي: يُراقُ[٧٥]. وعَرَفاتُ في البيت الثاني اسْمٌ لِمَوْضِعٍ واحدٍ ولو كان جَمْعًا، سُمِّيَتْ بذلك؛ لأنَّ آدَمَ وحَوّاءَ تعارفَا بها بعد نُزُولهما مِنَ الجَنَّة، ويُقال: إنَّ الناس يعترفون بذنوبهم في ذلك الموقف[٧٦].

ووصل ابن دِحْيَةَ البَلَنسي إلى طَيْبَةَ، فَتَبَرَّك بها، مُلْقِيًا عليها التَّحيَّة، وصَلّى على قبر النبِّي محمَّد، صلّى الله عليه وسلَّم. هاكم قَوْلَه من جملة قصيدة [٧٧] [الكامل]:

ذِكْري لِطَيْبَةَ طَيِّبُ النَّفَحاتِ والشَّوْقُ مِنّي دائِمُ اللَّفَحاتِ
أُهْدي لَها مِنّي تَحِيَّةَ مُغْرَمٍ تُغْني عن التَّقْبيلِ والرَّشَفاتِ
وأَلُوذُ بالقَبْرِ المُقَدَّسِ تُرْبُهُ وأَخُصُّ مَنْ يَحْوِيهِ بالصَّلَواتِ

طَيْبَةُ في البيت الأوَّل مدينةُ الرَّسول الكريم، وتَضُمُّ قَبْرَهُ وَمَسْجِدَهُ [٧٨].

ولابن جابر المَرِيّي قصيدة من واحد وعشرين بيتًا، كُلُّها في مدح الرسول الكريم، وهي من مَحاسن شعره، وقد استهلَّها بقوله [٧٩] [الطويل]:

هَناؤكُمُ، يا أَهْلَ طَيْبَةَ، قَدْ حَقّا فَبِالقُرْبِ مِنْ خَيْرِ الوَرى حُزْتُمُ السَّبْقا
تَرَوْنَ رسولَ اللهِ في كُلِّ ساعَةٍ ومَنْ يَرَهُ فَهْوَ السَّعِيدُ به حَقّا

وافْتَتَحَ ابن جابر أيضًا بَدِيعِيَّتَهُ بقوله [٨٠] [البسيط]:

بِطَيْبَةَ انْزِلْ ويَمِّمْ سَيِّدَ الأُمَمِ وانْشُرْ لَهُ المَدْحَ وانْثُرْ أَطْيَبَ الكَلِمِ

وقَطَعَ ابن جُبَيْر البَلَنْسي المَسافاتِ البعيدةَ بَحْرًا وبَرًّا؛ للوصول إلى مسجده وضريحه، وعندما شارَفَ طَيْبَةَ نَظَمَ قصيدةً شهيرةً تَحَدَّثَ فيها عن تّشَوُّقه إلى زيارة مُقام النبيِّ محمَّد، صَلّى الله عليه وسلّم، وأوَّلُها [٨١] [المتقارب]:

جَرى ذِكْرُ طَيْبَةَ ما بَيْنَنا فلا قَلْبَ في الرَّكْبِ إلّا وطارا
ولاحَ لنا أُحُدٌ مُشْرِقًا بِنُورٍ مِنَ الشُّهَداءِ اسْتَنارا

لمدينة طَيْبَةَ في هذا الشعر دَلالاتٌ كبيرةٌ في قَلْب ابن جُبَيْر وقُلُوب نُظَرائه الشعراء. وأُحُدٌ له أيضًا دَلالاتٌ على موضوع القصيدة، إذ فيه تلميحٌ إلى الأصول التي يَفْتَخِرُ بِها أهل الأندلس. وهو اسم الجبل الذي كانت عنده غَزْوَةٌ تُعْرَفُ بغزوة أُحُد، بينه وبين المدينة قُرابةُ ميل(٨٢).

ووصف ابن عربي مسجد الرسول الكريم وضَريحه في طَيْبَةَ، فقال (٨٣) [السريع]:

يا حَبَّذا المَسْجِدُ مِنْ مَسْجِدِ ! وحَبَّذا الرَّوْضَةُ مِنْ مَشْهَدِ
وحَبَّذا طَيْبَةُ مِنْ بَلْدَةٍ فيها ضَرِيحُ المُصْطَفى أَحْمَدِ!

وحَيّا ابن الحاج النُّمَيْري الغرناطي طَيْبَةَ في قوله (٨٤) [الطويل]:

رَعى اللهُ في أَكْنافِ طَيْبَةَ رَوْضَة وحَيّا بِذيّاكَ الحِمى ساكِنَ اللَّحْدِ

وفي سنة ٦٣٩هـ / ١٢٤١ م وَصَلَ ابن سعيد إلى الإسكندريَّة، وتَعَذَّر عليه الحَجُّ، فَنَظَمَ قصيدة طويلة، كُلُّها في التَّلَهُّف على الحَجِّ وزيارة يَثْرِبَ مدينة الرّسول الكريم، فقال (٨٥) [الكامل]:

قَرُبَ المَزارُ ولا زَمانٌ يُسْعِدُ كَمْ ذا أُقَرِّبُ ما أراهُ يَبْعُدُ
يا سائِرِينَ لِيَثْرِبٍ، بُلِّغْتُمُ قَدْ عاقَني عَنْها الزَّمان الأَنْكَدُ
فَعَلَيْكَ، يا خَيْرَ الخلائِقِ كُلِّها، مِنّي التَّحِيَّةُ والسَّلامُ السَّرْمَدُ

واحْتَلَّتْ نَجْدٌ والعَقِيقُ وإضَمٌ، وغَيْرُها،مَكانَةً سامية في نفوس شعراء الأندلس، فقال إبراهيم بن محمَّد الساحلي الغرناطي، المعروف بالطُّوَيْجِن، من جملة قصيدة (٨٦) [الطويل]:

ذَكَرْتُكَ، يا نَجْدُ، فَفاضَتْ مَدامِعي وأيُّ نَصِيرٍ لِلْمُحِبِّ سِوى الدَّمْعِ؟

فَنَجْدُ هنا مَكانٌ بالحجاز أَكْثَرَتِ الشعراءُ مِنْ ذِكْرِه (٨٧).

وحَيّا أحمد بن يوسف الرُّعَيْني الغرناطي وادي العقيق، فقال (٨٨) [البسيط]:

حَيِّ العَقيقَ إذا وَصَلْتَ وصِفْ لنا وادي مِنًى بأطايِبِ الأخْيارِ

العَقِيقُ في هذا البيت وادٍ بناحية المدينة المُنَوَّرة، وقد تقدَّم الحديث عنه (٨٩). ومِنىً وادٍ بظاهر مَكَّةَ، وقد تقدَّم الحديث عنها (٩٠).

وذَكَرَ الساحلي إضَمًا فقال(٩١) [البسيط]:

تَأَلَّقَ البَرْقُ مُجْتازًا على إضَمِ فَبِتُّ أعْشو لِوَقْدٍ مِنْهُ مُضْطَرِمِ

فإضَمٌ اسْمٌ لِصَحْراءَ بين مَكَّةَ والمدينة (٩٢).

وهناك مَعالِمُ عراقيَّةٌ احْتَلَّتْ مكانَةً لا بأس بها في نفوس شعراء الأندلس، كقول ابن جابر المَرِيّي يُناجي حادِيَ العِيس؛ لِيَحْمِلَ له تَحاياهُ إلى النَّبيّ محمَّد، صَلّى الله عليه وسلَّم، عَبْرَ أثير الصحراء [٩٣] [الكامل]:

يا أيُّها الحادي اسْقِنِي كَأْسَ السُّرى نَحْوَ الحبيب ومُهْجَتي للساقي [٩٤]
حَيّ العِراقَ على النَّوى[٩٥] واحْمِلْ إلى أَهْلِ الحِجاز رَسائلَ العُشّاقِ
يا حُسْنَ أَلْحانِ الحُداةِ [٩٦] إذا جَرَتْ نَغَماتُها بِمَسامِعِ المُشْتاقِ

يَطْغى على هذا الشعر أسلوب البَداوة، فيناجي ابنُ جابر حادي العِيس ويُحَمِّلُهُ تَحيّاتهِ الحارَّةَ إلى العراق والحجاز حيثُ مُقامُ الحبيبِ، النّبيّ مُحَمَّد، صَلّى اللهُ عليه وسلَّم.

والعراق: بَلَدٌ وَسَطَ الدُّنْيا وَعَيْنُها، سُمِّي بذلك ؛ لأنَّه على شاطىء دِجْلَةَ والفراتِ[٩٧].

والحجاز بلد تقدَّم الحديث عنه[٩٨].

وفي رحلته الأولى وَصَلَ ابن جُبَيْر البَلَنْسي إلى بَغْدادَ، فَتَذَكَّرَ غرناطة التي كان اسْتَقَرَّ بها فقال [٩٩] [الطويل]:

سَقى اللهُ بابَ الطاقِ صَوْبَ غَمامَةٍ ورَدَّ إلى الأَوْطانِ كُلَّ غَرِيبِ

فبابُ الطاق هذا مَحَلَّةٌ كبيرةٌ ببغدادَ بالجانب الشرقيّ[١٠٠].

وتَشَوَّقَ ابنُ الحاجّ النُّمَيْري الغرناطي إلى لُقْيا الحبيب المصطفى مُحمَّد، صَلّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال [١٠١] [الكامل]:

طابَ العُذَيْبُ بِماءِ ذِكْرِكَ وانْثَنى فَكَأَنَّما ماءُ العُذَيْبِ سُلافُهُ [١٠٢]

العُذَيْبُ ماءٌ بين القادسيَّة والمُغِيثة، بينه وبين القادسيَّة أربعةُ أميالٍ، وإلى المُغِيثة اثنان وثلاثون ميلًا، وقيل: هو وادٍ لبني تميم على مرحلة من الكوفة، مُسَمّى بتصغير العَذْب [١٠٣] . والمرحلة تُقَدَّرُ بخمسة وعشرين ميلًا [١٠٤].

ولابن الجَنّان الشاطبي مقطوعةٌ ذَكَرَ فيها العُذَيْبَ، فقال [١٠٥] [الكامل]:

ذَكَرَ العُذَيْبَ فَمالَ مِنْ سُكْرِ الهَوى صَبٌّ على صُحُفِ الغَرامِ قَدِ انْطَوى

كذلك لم تَغِبْ مَعالِمُ اليَمَن، ولا سيَّما عَدَنُ وغُمدانُ، عن مُخَيَّلَة الشاعر الأندلسي . هاكُمْ قَوْلَ ابنِ سعيد من جملة قصيدةِ غَزَلٍ يتشوَّقُ إلى مُلاقاة محبوبته بغرناطة [١٠٦] [الطويل]:

وجَنَّتُهُ جَنّاتُ عَدْنٍ وفي لَظى فؤادي وما لي مِنْ ذُنُوبِيَ تَعْذُبُ

فالجنة هي الحديقة ذات النخل والشجر وعَدَنٌ تعني الاقامة وهي مدينة صغيرة باليمن، وتمثل ساحل صَنْعاءَ[١٠٧].

وقال الساحلي من جملة مَدْحِيَّة قالها في صاحب المَغْرِب أبي الحسن علي المَرِيني [١٠٨] [الكامل]:

سَتَحُلُّ مِنْ غُمْدانَ مِحْرابَ الدُّمى ... مَرْقى ابْنِ ذي يَزَنٍ ومَرْقَبَ حِمْيَرِ[١٠٩]

وتُنِيرُ مِنْ بَغْدادَ دارَ رَشِيدِها ... وإمامِها المَنْصُـــورِ والمُسْتَنْصِـرِ

وتُعِلُّ مِنْ مـــاءِ الفُراتِ صَوادِيًا ... خَضَبَتْ شَواهـــــا بالدَّم المُتَمَوِّرِ[١١٠]

وتَزُورُ مـــــاءَ الرافِدَيْنِ مُساجِلًا ... لَهُما بِعَذْبٍ مِنْ نَوالِكَ كَوْثَرِ

غُمْدانُ في البيت الأوَّل قَصْرٌ بناه ابن ذي يَزَنٍ بِصَنْعاءَ[١١١]. وبَغْدادُ في البيت الثاني أُمُّ الدُّنْيا ومدينة السلام، بناها أبو جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيّين[١١٢]. والرشيد هو هارون الرشيد خامس الخلفاء العباسيّين[١١٣] . والمستنصر هو الخليفة العَبّاسي منصور بن محمَّد، باني المدرسة المستنصريَّة ببغداد[١١٤]. وماء الرافدين في البيت الرابع ماءُ نَهْرَيْ دِجْلَةَ والفُرات؛ فَدِجْلَةُ نَهْرٌ يخرج من جبل بقرب آمد من أرمينية، ويَمُرُّ بالمَوْصِـــل، فتكريت، ثُمَّ بغدادَ ثُمَّ البَصـــرة، ثُمَّ يَصُـــبُّ في بحر الهند[١١٥]. والفُراتُ نَهْرٌ بجانب دِجْلَةَ، يخرج من أرمينية ويَمُرُّ بالعراق ويَصُـــبُّ ببحر الهند[١١٦].

وَشَـطَحَ خيالُ ابن جُبَيْرِ البَلَنْسـي بعيدًا، فَفَضَّـلَ المَشْـرِقَ على بلده الأندلس، فقال [١١٧] [الكامل]:

لا يَسْـــتَوي شَـــرْقُ البِلادِ وغَرْبُهـا ... الشَّـــرْقُ حازَ الفَضْـــلَ باسْـــتِحْقاقِ

أُنْظُرْ جَمـالَ الشَّـــمْسِ عِنْـدَ طُلُوعِهـا ... زَهْراءَ تُـعْـجِـبُ بَـهْـجَـةَ الإشْـــراقِ

وانْظُرْ لـهـا عِنْـدَ الـغُـرُوبِ كَـئِـيـبَـةً ... صَـــفْراءَ تُـعْـقِـبُ ظُـلْـمَـةَ الآفـاقِ

الخاتمة:

تناول البحث التأثير المشرقي على الأدب الأندلسي وقد ظهر التأثير واضحاً في النتاج الشّعري لشعراء الأندَلُس وقد توصَّل البحث الى النتائج التالية:

١- كانت بداية التأثير المشرقي مبكرة في نتاج الأندلسيين بعد دخول العرب خاصة في الشكل والمضمون.

٢- نقل الكثير من الأخيلة والصور المشرقية الى الأدب الأندلسي.

٣- سار الأدب الأندلسي على نهج المشارقة في الأوزان والقوافي وفق نظرية عمود الشعر.

٤- اكثر الأندلسيون من نظم الأشعار في وصف الطبيعة وهي بحد ذاتها لا تخلو من المؤثرات المشرقية.

٥- الاكثار من ذكر المواقع والمعالم المشرقية في شعرهم كالمدن والقلاع والبلدات مما يدل بشكل واضح على ما يحملهُ الشعراء من مشاعر الحنين الى المشرق، فقد ذكروا في أشعارهم مكة المكرَّمة والمدينة المنوَّرة والحجاز ودمشق وحلب وبغداد واهرامات مصر وغيرها.

٦- كان للرحلات التي قام بها أدباء الأندلس الى المشرق ومشاهداتهم للديار المشرقية الأثر الكبير في تأثرهم بالمشارقة وانعكاس ذلك في نتاجهم الأدبي.

الهوامش والمصادر:

(١) تنظر :الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (المتوفى: ٥٤٢هـ)، تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، ط١، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، ١٩٨١،(١٢/١).

(٢) العِقْد:،أحمد بن محمَّد ابن عبد ربِّه، شرح الأساتذة أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، ط٣، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٩– ١٩٦٥،(٣٢٨/٥).

(٣) نَفْحُ الطِّيب، مِنْ غُصْن الأندلس الرَّطيب، وذِكْرُ وزيرها لسان الدِّين ابن الخطيب : شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (المتوفى: ١٠٤١هـ)، تحقق: إحسان عباس، ط١، دار صادر– بيروت – لبنان، ١. ١٩٩٧، (١٥/٢).

(٤) المصدر نفسه، (١٦/٢).

(٥) تنظر: نُزْهَة المُشْتاق في اختراق الآفاق، محمَّد بن محمَّد الإدريسي، ط١، دار عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩، ص ٣٧٦.

(٦) الغُصُون اليانعة، في محاسن شعراء المئة السابعة: علي بن موسى ابن سعيد، تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري، ط٣، دار المعارف، مصر، ١٩٧٧،ص١٤٢.

(٧) العَرُوبَةُ: هي العاصيةُ زوجها، ويَوْمُ العَرُوبة : يوم الجمعة.

(٨) كتاب الجِغرافيا: علي بن موسى ابن سعيد، تحقيق الأستاذ إسماعيل العربي، ط١، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيعَ، بيروت،١٩٧٠، ص ١٥٢.

(٩) المَقَّري: نفح الطيب، (٢/ ٣٢٧)، مصدر سابق.

(١٠) المصدر نفسه، (٢٧٣/٢).

(١١) المصدر نفسه، (٢٧٨/٣).

(١٢) رحلة ابن بَطُّوطة: المُسَمّاة أيضًا : تُحْفَةُ النُّظّار، في غرائب الأَمْصار، وعجائب الأَسْفار: ابن بطُّوطة، محمَّد بن عبدالله:، لا طبعة، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص٨٧.

(١٣) ابن سعيد: الغصون اليانعة، ص ١٤٤، مصدر سابق.

(١٤) القُضُبُ: جمع قَضِيب وهو الغُصْن. والنَّشْرُ: الرِّيحُ الطَّيِّبَةُ.

(١٥) اختصار القِدْح المُعَلّى، في التاريخ المُحَلّى: علي بن موسى ابن سعيد:، تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري، ط٢، دار الكتاب اللبناني ببيروت، دار الكتاب المصري بالقاهرة، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص١٨١.

(١٦) بُغْيَةُ الوُعاة، في طبقات اللُّغَويّين والنُّحاة:، عبد الرحمن بن أبي بكر السَّيُوطي، دار المعرفة، بيروت، لا طبعة ولا تاريخ، ص١٤.

(١٧) أزْهار الرِّياض، في أخبار عِياض: المَقَّري، أحمد بن محمَّد، تحقيق الأساتذة مصطفى السَّقّا وإبراهيم ٢. الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، لا طبعة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٥٨–١٣٦١هـ/ ٣. ١٩٣٩–١٩٤٢م، (٢٧٢/٣).

(١٨) معجم البلدان : ياقوت بن عبدالله:، لا طبعة، دار صادر، دار بيروت، ١٤٠هـ/١٩٨٤م،(١٩٩/٢).

(١٩) اختصار القِدْح المُعَلّى، ص٢٠٨، مصدر سابق.

(٢٠) يَتَثَنّى: يَنْعَطِفُ.

(٢١) اختصار القِدْح المُعَلّى، ص٢٠٨، مصدر سابق.

(٢٢) معجم البلدان، (٨٦/٢)، مصدر سابق.
(٢٣) اختصار القِدْح المُعَلّى، ص١٨١، مصدر سابق.
(٢٤) معجم البلدان، (١٥٤/٢)، مصدر سابق.
(٢٥) نفح الطيب، (٦٧٥/٢)، مصدر سابق.
(٢٦) الرَّوْض المِعْطار، في خَبَر الأَقْطار: محمَّد بن عبد المنعم الحِمْيَري،، تحقيق الدكتور إحسان عَبّاس، ط٢، مؤسَّسة ناصر للثقافة، بيروت، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م، ص١٩٨.
(٢٧) رحلة ابن بَطُّوطة، ص٦٦، مصدر سابق.
(٢٨) المصدر نفسه، ص٧١-٧٢.
(٢٩) الوابِلُ: المَطَرُ الشديد. والغَيْداق: الغزير.
(٣٠) الكأسُ الدِّهاقُ : المَلْأى.
(٣١) المُرادُ نِطاقُ الجَوْزاء، وهو ثلاثة كَواكِبَ في وسطها. والشَّهْباء لَقَبُ مدينة حلب.
(٣٢) الروض المعطار، ص١٩٦، مصدر سابق.
(٣٣) معجم البلدان، (١٨٦/٢)، مصدر سابق.
(٣٤) المصدر نفسه،(٤٥٠/١).
(٣٥) المصدر نفسه،(٧٧/٤).
(٣٦) اختصار القِدْح المُعَلّى، ص٦، مصدر سابق.
(٣٧) معجم البلدان، (٣٣٠/٥)، مصدر سابق.
(٣٨) المصدر نفسه،(٣٧٦/٤).
(٣٩) كتاب الجِغْرافيا، ص١٥٣، مصدر سابق.
(٤٠) معجم البلدان، (١٥٦/٥)، مصدر سابق.
(٤١) رحلة ابن بَطُّوطة، ص٣٦، مصدر سابق.
(٤٢) الروض المِعْطار، ص٥٥٢، مصدر سابق.
(٤٣) آثار البلاد، وأخبار العِباد : زكرّيا بن محمَّد القزويني،، لا طبعة، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص٢٦٣.
(٤٤) رحلة ابن جبير :، محمَّد بن أحمد رحلة ابن جبير، لا طبعة، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص٢٨.
(٤٥) معجم البلدان، (٤٠٠/٥)، مصدر سابق.
(٤٦) مروج الذَّهَب ومَعادن الجَوْهَر:، علي بن الحسين المسعودي، ضَبَطَها الأستاذ يوسف أسعد داغر، ط٤، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م،(٤٠١/١).
(٤٧) بدائع البدائه: علي بن ظافر الأَزْدي، تحقيق الأستاذ محمَّد أبو الفضل إبراهيم، لا طبعة، مكتبة الأنجلو المِصْرِيَّة، القاهرة، ١٩٧٠، ص٢٥٦.
(٤٨) الأَكْنَافُ: جمع كَنَف وهو الجانب. والسِّماك: كَوْكَبٌ نَيِّرٌ.
(٤٩) النَّشْزُ : المكان المرتفع.
(٥٠) رحلة العَبْدَرِيّ: محمَّد بن محمَّد العَبْدَرِيّ، تحقيق الدكتور علي إبراهيم كردي، ط١، دار سعد الدِّين، دمشق،

١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ص٣١٢.

(٥١) فَواتُ الوَفَيات: محمَّد بن شاكر: تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، لا طبعة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣-a. ١٩٧٤،(١٠٥/٣).

(٥٢) نفح الطيب، (٦٤١/٢)، مصدر سابق.

(٥٣) التُّرَعُ : جمع تُرْعَةٍ وهي الباب.

(٥٤) رحلة العبدري، ص١٧٥، مصدر سابق.

(٥٥) القُرْبانُ: ما يُتَقَرَّبُ به إلى الله تعالى من ذَبيحةٍ وغيرها.

(٥٦) معجم البلدان، (٢١٨/٢)، مصدر سابق.

(٥٧) الإحاطة، في أخبار غرناطة:، محمَّد بن عبدالله ابن الخطيب، تحقيق وتقديم الدكتور يوسف علي طويل، ط١، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، (١٢١/١).

(٥٨) رحلة ابن جبير، ص٧، مصدر سابق.

(٥٩) نفح الطيب، (٤٩٢/٢)، مصدر سابق.

(٦٠) معجم البلدان، (٢٥٤/١)، مصدر سابق.

(٦١) نفح الطيب، (٣١٢/٧)، مصدر سابق.

(٦٢) الإحاطة، في أخبار غرناطة، (١٢٤/١)، مصدر سابق.

(٦٣) القصيدة الأندلسيَّة خلال القرن الثامن الهجري: الظواهر والقضايا والأبنية:، عبد الحميد عبدالله الهرّامة ٥. ، ط٢، دار الكتاب، طرابلس، ١٤٢٩هـ/١٩٩٩م،(٤٢٨/١).

(٦٤) معجم البلدان، (٣٠٧/٢)، مصدر سابق.

(٦٥) صحيح أبي عبدالله البُخاري: محمَّد بن إسماعيل البُخاري، تحقيق الأساتذة محمود النواوي ومحمَّد أبو الفضل إبراهيم ومحمَّد خفاجي، لا طبعة، مكتبة النهضة المصريَّة، مطبعة الفجالة، ١٩٥٦م، (٣٩٨/٣).

(٦٦) نفح الطيب، (٤٩٣/٢)، مصدر سابق.

(٦٧) المصدر نفسه،(٤٨٣/٢).

(٦٨) أَحْرَمَ: دَخَلَ في حَرَمَ مَكَّةَ. والهَدِيُّ: ما يُهْدى إلى الحَرَم من النَّعَم(الإبْل والشاء).

(٦٩) المُطْرِب، من أشعار أهل المَغْرِب: عمر بن حسن ابن دِحْيَةَ، تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري والدكتور حامد عبد الحميد والدكتور أحمد بدوي، لا طبعة، دار العلم للجميع بيروت، ١٩٥٥، ص غ، ١، من مقدِّمة المحقِّق.

(٧٠) معجم البلدان، (١٣٩/١)، مصدر سابق.

(٧١) المصدر نفسه،(١٨/٣).

(٧٢) المصدر نفسه،(٢٧٣/٢).

(٧٣) المصدر نفسه،(١٤٧/٣-١٤٨).

(٧٤) الذَّيْلُ والتَّكْمِلَةُ لِكِتابَي المَوْصُول والصِّلة: محمَّد بن محمَّد ابن عبد الملك المَرّاكُشي، تحقيق الأستاذ محمَّد بن شريفة والدكتور بشار عواد معروف، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، تونس،، ٢٠١٢ م، (٥١٩/٣).

(٧٥) معجم البلدان، (١٩٨/٥)، مصدر سابق.

(٧٦) المصدر نفسه، (١٠٤/٤).
(٧٧) الذَّيْلُ والتَّكْمِلَةُ،(٨٣/٥)، مصدر سابق.
(٧٨) معجم البلدان، (٥٢/٤)، مصدر سابق.
(٧٩) نفح الطيب، (٣٠٥/٧)، مصدر سابق.
(٨٠) الحُلَّة السِّيَرا، في مَدْح خَيْر الوَرى: محمَّد بن أحمد ابن جابر، تحقيق الأستاذ علي أبو زيد، ط١، دار ٦. عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص١٦١.
(٨١) الذيل والتكملة، (٦٠٢/٥)، مصدر سابق.
(٨٢) معجم البلدان، (١٠٩/١)، مصدر سابق.
(٨٣) نفح الطيب، (١٨٤/٢)، مصدر سابق.
(٨٤) مَزاين القَصْر، ومحاسن العَصْر، في مَدْح أمير المسلمين أبي عبدالله بن نَصْر:، إبراهيم بن عبدالله ابن الحاجّ، مخطوطة المتحف البريطاني، رقم ٥٦٧٨٠،الورقة ١٠، أ.
(٨٥) نفح الطيب، (٣١٣/٢)، مصدر سابق.
(٨٦) الكتيبة الكامنة، في مَنْ لَقِيناهُ بالأندلس من شعراء المئة الثامنة:، محمَّد بن عبدالله ابن الخطيب تحقيق الدكتور إحسان عَبّاس، لا طبعة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣، ص٢٣٧.
(٨٧) معجم البلدان، (٢٦١/٥)، مصدر سابق.
(٨٨) نفح الطيب، (٢٢٤/١٠)، مصدر سابق.
(٨٩) راجع ص ١٢ من هذا البحث.
(٩٠) راجع ص ١٣.
(٩١) مسالك الأَبْصار، في ممالك الأَمْصار: أحمد بن يحي العُمَرِيّ،، مخطوطة مصوَّرة بالميكروفيلم بمكتبة الجامعة الأميركيّة ببيروت تحت رقم Mic-A-80، ج١١، الورقة ٢١٤.
(٩٢) معجم البلدان، (٢١٤/١)، مصدر سابق.
(٩٣) نفح الطيب، (٨٦٠/٢)، مصدر سابق.
(٩٤) السُّرى: السَّيْرُ لَيْلًا . والحبيب: هو النبيُّ محمَّد صَلّى اللهُ عليه وسَلَّمَ.
(٩٥) النَّوى : البُعْدُ والوَجْهُ الذي يَنْويه المُسافِرُ مِنْ قُرْبٍ أو بُعْد.
(٩٦) الحُداة: جمع حادٍ وهو الذي يَحْدو للإبْل، أي يُغَنّي لها؛ لِتُسْرِعِ في سَيْرِها.
(٩٧) الحميري: الروض المعطار، ص٤١٠، مصدر سابق.
(٩٨) انظر ص ٩ من هذا البحث.
(٩٩) نفح الطيب، (٣٨٦/٢)، مصدر سابق.
(١٠٠) معجم البلدان، (٣٠٨/١)، مصدر سابق.
(١٠١) الإحاطة، في أخبار غرناطة، (١٨١/١)، مصدر سابق.
(١٠٢) السُّلافُ: الخَمْرُ.
(١٠٣) معجم البلدان،(٩٢/٤)، مصدر سابق، و لسان العرب : محمَّد بن مُكَرَّم ابن منظور، دار صادر، بيروت، لا طبعة ولا تاريخ، مادَّة " عذب".
(١٠٤) نزهة المشتاق، في اختراق الآفاق، ص٥٨١، مصدر سابق.

(١٠٥) الوافي بالوَفَيات : صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى: ٧٦٤هـ)، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت،١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م،(١٤٥/١).

(١٠٦) نفح الطيب، (٥٠/٣)، مصدر سابق.

(١٠٧) الروض المعطار، ص ٤٠٨، مصدر سابق.

(١٠٨) نثير فرائد الجُمان، في نَظْم فُحُول الزَّمان : إسماعيل بن يوسف ابن الأحمر، تحقيق الأستاذ محمَّد رِضْوان الداية، لا طبعة، دار الثقافة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٧، ص٣١٢.

(١٠٩) المَرْقَبُ: القلعة الحَصِينة، وابن ذي يَزَنٍ، من قبيلة حِمْيَرَ بن سَبَأ . جمهرة أنساب العرب : علي بن أحمد ابن حزم، تحقيق الأستاذ عبد السلام محمَّد هارون، لا طبعة، دار المعارف بمصر، ١٩٦٢، ص٤٣٢، ٤٣٦.

(١١٠) تُعِلُّ الصَّوادِيَ: تَسْقِيهِنَّ ثانيةً، والصَّوادي: جمع صادِيَةٍ وهي العَطْشى. والشَّوى: الأطراف، يَدَيْنِ ورِجْلَيْنِ.والدَّمُ المُتَمَوَّرُ: الذي يسيل، الجاري؛ يُقال: مارَ الدَّمُ على الأرض: جَرى.

(١١١) معجم البلدان، (٢١٠/٤)، مصدر سابق.

(١١٢) المصدر نفسه، (٤٥٦/١-٤٥٧).

(١١٣) ترجمة هارون الرشيد وأخباره في: الأعلام : خير الدين الزِّرِكْلي، ط٥، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠،(٦٢/٨).

(١١٤) ترجمة المستنصر العَبّاسي وأخباره في: الأعلام للزِّرِكْلي، (٤٠٣/٧)، مرجع سابق.

(١١٥) معجم البلدان، (٤٤٠/٢)، مصدر سابق.

(١١٦) المصدر نفسه،(٢٤١/٤).

(١١٧) الإحاطة، (١٥١/٢)، مصدر سابق.